قراءات العدد الماضي من الآداب

١ ـ التكرار الإيديولوجيّ في ملفّ الآداب

مسعود ضاهر

دأبتْ مجلة الآداب، وكعادتها في تسليط الضوء على مشكلات ثقافيّة بارزة في مختلف حقول الإبداع الأدبيّ، على إصدار أعداد خاصة بمشاركة نخبة من أبرز الباحثين والمبدعين العرب. وفي هذا السياق أصدرتْ عددها الأخير ٤/٣، آذار ـ نيسان ٢٠٠٠ تحت عنوان: «الحضارات والثقافات: بين الحوار والصراع». وقد أشْرف على إعداد ملفّ هذا العدد الصديق محمد جمال باروت، وتضمّن مقالاتٍ لباحثين معظمُهم من المشرق العربيّ، وبشكلٍ أكثر تحديداً من الجنسيّة السوريّة. ويبدو أنّ إشكاليّة المكان باتت عقبة جدّيّةً في طريق الأبحاث الجماعية العربيّة، وذلك رغم معرفة الجميع أنّ الكفاءة العالية للمشاركين المحليّين في أيّ ملفٍ ثقافيّ، ومن أيّ نوعٍ كان، لا يمكن أن تشمل كامل موضوعاته. ناهيك عن أنّ إشكاليّة «الحضارات والثقافات: بين الحوار والصراع» تحتاج في الفكر العربيّ إلى تضافر جهود أبرز النخب العربيّة، بالإضافة إلى آراء عددٍ كبيرٍ من الباحثين الغربيّين المهتمّين بهذا الموضوع الذي نُظّمت وما تزال تُنظّم من أجله عشراتُ الندوات العلميّة.

نشير كذلك إلى أنّ بعض المجلات العربيّة أصدرتْ بكثرةٍ ملفاتٍ متخصّصةً عن فكر عصر النهضة من جهة، ولمناقشة آخر مقولات العولمة، ولاسيّما مقولة فوكوياما حول: «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، ومقولة صموئيل هانتينغتون حول: «صدام الحضارات» من جهة أخرى. ولكثرة ما نُشر من ردود سلبيّة على هاتيْن المقولتيْن تم سحبُهُما من السِّجال الثقافيّ في مختلف مراكز الإنتاج العلميّ في الدول المتطوِّرة، في حين استمرّ عددٌ كبيرٌ من الباحثين العرب يستحضرونهما كمادةٍ دسمةٍ للهجوم على الغرب... علماً أنّ كلاً من فوكوياما وهانتينغتون قد انطلق من مقالة في مجلة **فورن أفيرز** Foreign Affairs، ثم طوّرها إلى كتابٍ كاملٍ تراجَعَ فيه عن مقولته السابقة دون أن تتراجع عنها لا الخارجيّةُ الأميركيّةُ، ولا منظِّرو العالم الثالث في نقدهم اليوميّ لها! وما يؤخذ على الأعمال العربيّة الجديدة التي تناقش مسألة العلاقة بين الحضارات والثقافات، وما إذا كانت حواريّةً أو صراعيّةً، أنها لم تعد تَخْرج عمّا هو متداول من ردود فعل أيديولوجيّةٍ سلبيّةٍ في هذا المجال، فلا تقدّم مقولاتٍ نظريّةً إضافيّةً، ولا جديداً معرفيّاً غيرَ مسبوق في ملفات سابقة.

إشكاليّة المرجعيات النظريّة المتنافرة في دراسة حوار/صراع الحضارات

إنّ قراءة معمّقة لملف الآداب الأخير تقود إلى ملاحظات منهجيّة كثيرة تصعب الإحاطةُ بها، وسنشير فقط إلى بعضها. فقد كُتبتْ بعضُ أبحاث الملف بروحٍ سِجاليّةٍ متوترة، ولم ير كاتبوها حاجةً إلى مناقشةِ مقولةٍ بعينها. فمعالجة الموضوع بشكلٍ عامٍ تعطي الباحثَ حريةَ التنقُّل السهل بين الحضارات القديمة، كحضارات بلاد ما بين النهرين، والحضارة اليونانيّة، والحضارة الرومانيّة، والحضارة العربيّة، وصولاً إلى الحضارات الأوروبيّة والأميركيّة والصينيّة واليابانيّة.

وفي حين حرّر بعضُ الباحثين أنفسَهم من تحديد حقل الدراسة، أو التعريف بمصادرها، أو التركيزِ على فرضياتٍ

علميّة جديدة يَعْمل على إثباتها أو نفيها، آثر البعضُ الآخر خوضَ غمار الإيديولوجيا من بابها الواسع بهدف تعرية «العولمة المراوغة»، ونقدِ «ما بعد الحداثة»، و«تجاوزِ المركزيّة الغربيّة»، و«تعزيزِ قيم الاختلاف» و «خلقِ مركزيّةٍ جديدةٍ تحلّ فيها مركزيةُ الثقافة أو الروح مكانَ المركزيّة العرقيّة القديمة»، والأملِ بأن تودِّع البشريّةُ عصرَ «الإبادة الثقافيّة»، وغيرها.

بشكل عام، حلّ التنظيرُ مكانَ الدراسات العلميّة الموثقة. فكانت النتيجةُ تكرارَ مناخٍ ثقافيٍّ ليس بجديد لكثرة ما يتردّدُ يومياً من مقولاتٍ وآراء ثابتةٍ لم تتبدّل منذ ظهور كتاب ادوارد سعيد: **الاستشراق**. وبدلاً من كشف زيف الإيديولوجيا بالعلم، والدراسات الأمبيريقيّة، والنصوص الموثقة، جرت مقارعةُ الإيديولوجيا الغربيّة بإيديولوجيا معكوسةٍ من الطراز عينه، واستُخدمتْ فيها آراءُ مفكّرين غربيّين في مواجهةِ آخرين من بني جلدتهم. وكأنّ الباحث العربيّ يحتاج إلى الردّ على آراء غربيّةٍ تحطّ من شأن العرب والمسلمين وتنفي إنجازاتهم الحضاريّة، بالاقتباس عن كتبٍ غيرِ علميّةٍ من الغرب نفسه، وذلك على طريقة «شمسُ العرب تسطع على الغرب». وقدّم بعضُ الباحثين «الدليلَ القاطعَ» على عنصريّة الفكر الغربيّ بكامله، الذي يسعى إلى إسقاط دور العرب في نقل الحضارة اليونانيّة إلى الغرب، وذلك بالإشارة إلى مقولة غربيّة جديدة ترى أنّ الغرب يَكْتب الآن تاريخَ اليونان القديمة بعد إزالةِ كلّ ما يتّصل بجذورها المتوسطيّة أو المشرقيّة. هذا مع التذكير، في كل صفحة تقريباً، بمقولات فوكوياما، وهانتينغتون، وبرنارد لويس المعروفة بعدائها للعرب وللمسلمين. لكنّ بروز ظاهرات جديدة وغير عقلانيّة في الفكر الأوروبيّ، وهي ظاهراتٌ دانها الباحثون الأوروبيّون أنفسهم، لا يجوز أن يُتّخَذَ ذريعةً لتعميم سمة اللاعقلانيّة على الفكر الأوروبيّ كله. وحين يوضع الغربيُّ، أو الأوروبيُّ، أو «الآخرُ» المتفوقُ تكنولوجياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً، في موقع النقيض للذات العربيّة التي تفتقر إلى الحدّ الأدنى من التماسك الداخليّ والوحدة القوميّة، تتّضح ملامحُ الخلل الحادّ في رسم شروط المواجهة الناجحة والحوار الندّيّ بينهما. لذلك يستعاض عن نقد «الذات» المتخلّفة بنقد «الآخر» المتفوّق عن طريق نعته بكل الصفات السلبيّة كالهمجيّة، والتوحّش، وحبِّ الإبادة، والعنصريّة، والاستعلاء، والنزعةِ التسلّطية، وتدميرِ ذواتِ الآخرين، والإلحاقِ القسريّ بالمركزيّة الأوروبيّة. فهل صحيح أنّ تلك الصفات هي فعلاً السماتُ الأساسيّة لهذا «الآخر»؟ وإذا كانت كذلك فلماذا الهرولة باتجاهه، وطلبُ الحوار الإيجابيّ معه؟ ولماذا لا تعطى الأولويةُ لمقولات الصراع معه، وعلى جميع الصعد؟ أما إذا كانت صورةُ الغرب أكثرَ غنًى وتنوُّعاً من الأوصاف الواردة في كثير من مقالات الملف، فأحرى بالمثقف العربيّ التزام جانب الدقّةِ، والإنصافِ، والموضوعيّةِ في عرضه لصورة الآخر وسماته حتى لا تكون الصورةُ مشوّهةً ومن صنع الخيال العربيّ فقط. والطريف في الأمر أنّ أدوات المواجهة مع «الآخر» في هذه المعركة الشرسة وغير المتكافئة تقتصر على الممانعة اللفظيّة، ورفضِ التغريب، والتهويلِ من الاستلاب، والتمسكِ بالأصالة والتراث، وتنبيهِ «الآخر» إلى المخاطر المستقبليّة لعمليات النبذ، والنفي، والإقصاء، والتهميش. لكنّ الواقع عنيد دوماً، ويؤكّد بالملموس أنّ الغرب مقيم فينا، وأنّ الصراع معه يتطلّب درجةً عالية من الكفاءة العلميّة، ومعرفتَه بشكلٍ علميّ دقيق، لا من طريق تكرار الأفكار الموروثة. وإذا كان الهجومُ اللفظيّ على الغرب لا يغيِّر في ميزان القوى المختلّ أصلاً معه قيدَ أنملة، فإنّ الترويج لمقولة «حوار الحضارات في إطار التناغم ما بين مفهوم التقدُّم ونسبيّة الثقافات شرط أن يبتعد الغربُ عن الرؤية الدعاويّة والتبشيريّة» يوسِّس لنظرة طوباويّة ترى «أنّ حوار الحضارات يعني تعزيزَ قيم الاختلاف بالتعدُّد والاتّصال الثقافيّ، إذ إنّ الاختلاف ما بين الثقافات هو الذي يجعل التقاءها خصباً» (باروت).

نشير أيضاً إلى أنّ غياب نقد التخلُّف الذاتيّ الذي جَعَلَ العربَ يستمرُّون على ما هم عليه منذ قرون طويلة لا يقود إلى تغييرٍ حقيقيّ. ولا يتم الخروجُ من هذه الحالة إلا من طريق نقد الذات قبل نقد الآخر أو بالتزامن معه، والتأسيسِ لنهضةٍ عربيّةٍ جديدة طال انتظارُها تُبنى على الركائز الإيجابيّة لا السلبيّة في التراث العربيّ، وتنفتح على جميع الثقافات، وتتفاعل بشكلٍ إيجابيٍّ مع علوم العصر دون خوفٍ أو مركباتِ نقص. ويبدو أنّ جانب نقد الذات الذي لا يستقيم توازنُ ملف حوار/صراع الحضارات بدونه متروكٌ لملفاتٍ لاحقةٍ قد لا تجد مَنْ يشارك في إعدادها ونشرها. هكذا يأخذ نقدُ «الآخر»، أي الغرب، الحيزَ شبهَ الكامل في ملف الآداب، كما أنّ الدراسات الاستشراقيّة الملحقة به تعبِّر عن هذا المنحى بامتياز. فجاءت محصلةُ الملفّ تكراراً لمقولات معروفة سلفاً، لكثرة ترددها في ندواتٍ ومؤتمراتٍ وأبحاثٍ سابقة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، يصل أحدُ الباحثين إلى استنتاج طريفٍ للغاية في عموميّته وهو: «أنّ الحضارة الرأسماليّة أكثرُ كليّةً وشمولاً من الحضارات السابقة بعد أن حلّ فيها العقلُ مكان العاطفة، والإنسانُ محلّ اللّه، والعالميّةُ محلّ القوميّة والوطنيّة». ويستنبط باحثٌ آخر مقولةً جديدةً أكثرَ طرافةً من سابقتها ترى «أنّ الغرب أعاد كتابة تاريخ اليونان القديمة بعد إزالةِ كلّ ما يتّصل بجذورها المتوسطيّة أو المشرقيّة». ويستنتج ثالثٌ «أنّ التبادل الثقافيّ والإثنيّ والتقنيّ لم يرتبط بعلاقات التحكُّم والسيطرة إلا مع إعادة تأسيس الغرب لذاته، كمحورٍ للعالم، باسم تطلُّعات كونيّة عالميّة». ويصل باحثٌ رابعٌ إلى استنتاجٍ تقريريٍّ حاسم مفادُه «أنّ المصدر الأساسيّ لزوال الصراعات وانتهاء العنف ليس مصدراً اقتصادياً ولا ايديولوجيّاً ولا

سياسيّاً ولا تكنولوجيّاً... بل حضاريّ». ناهيك عن استنباط مفاهيم ومقولات «مبتكرة» من الاشتقاق اللفظيّ لكلماتٍ يحتاج شرحُها إلى ملف آخر، ومنها، على سبيل المثال: «الفهم الجوهراتيّ للحضارات»، و«ثنائيّة الأنا المتحضِّر والآخر الهمجيّ»، و«العولمة المراوغة»، و«الوحدة المبدئيّة وتهجية الحرف الناقص»، وأنّ «المخلوق إذا استعلى كفَّ عن أن يكون تواصليّاً»، و«الوحدة المبدئيّة للحضارات التي تتواشج فيها الروحُ والمادةُ»، والانتقال «من صراع الحضارات إلى الصراع على الثقافة ورأس المال الحضاريّ»، و«لا حوار بين الحضارات ولا صراع»، وغيرها الكثير.

من ناحية أخرى، صُنِّفتْ دراسةُ شمس الدين الكيلاني «تبادل صور التعارف التخيُّليّة بين أوروبا والعالم العربيّ ـ الإسلاميّ حتى القرن السادس عشر»، ودراسة محمد الأرناؤوط «دور الاستشراق في النموذج اليوغوسلافيّ»، في باب «دراسة حالة». وكان من الأفضل نشرُهما بشكلٍ طبيعيٍّ في ملف عن الدراسات الاستشراقيّة بدل إقحامهما في ملف «حوار/صراع الحضارات»، ولاسيَّما أنّ المقولات النظريّة الواردة فيهما تندرج تلقائيّاً ضمن دائرة البحث التاريخيّ الموثّق ولا فائدة تُذكر من توظيفها في سجالٍ إيديولوجيٍّ مفتعلٍ وغير علميّ.

بقي أن نشير إلى أنّ مقولات إدوارد سعيد في كتابيه **الاستشراق** و**الثقافة والإمبرياليّة** كانت حاضرةً بقوّة في غالبيّة مقالات هذا الملف. وقد تمت الاستفادةُ منها للردّ على مقولات فوكوياما وهانتينغتون، وبخاصةٍ أنّ معظم المشاركين في الملف تبنَّوا مقولةً شائعةً ترى أنّ الغرب كان دوماً بحاجة إلى عدوٍّ يحاربه منذ بدايات تشكله كقوّةٍ اقتصاديّةٍ وماليّةٍ وثقافيّةٍ وعسكريّةٍ كبيرة، وأنّه ـ مع سقوط الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكيّة السابقة ـ صُنِّف العربُ والمسلمون في رأس قائمةِ أعداء الحضارة الغربيّة التي تعمل على ترويضهم من طريق «نفي خصوصيّتهم الإسلاميّة التي يفاخرون بها».

وقد رأى معظم المشاركين أنّه إذا ما نجح الغربُ في تدجين «الممانعة الثقافيّة العربيّة» فستبرز مرحلةٌ جديدة قد يندرج العرب والمسلمون فيها طوعاً في إطار العولمة الثقافيّة أو الحضارة العالميّة التي ترعاها الولاياتُ المتحدة الأميركيّة؛ فعلى العرب ـ بالتالي ـ أن يكونوا مستنفرين دوماً للتصدّي لهذه «العولمة المراوغة» بكل ما لديهم من طاقات بشريّة ومادية.

يأخذ نقد «الآخر» أي الغرب، الحيّز شبه الكامل في ملفّ الآداب

خلاصة القول في هذا المجال أنّ دراسات الملف حفلتْ بمرجعيّات نظريّةٍ وُظِّفَتْ، بالدرجة الأولى، للردّ على مقولات فوكوياما في **نهاية التاريخ والإنسان الأخير**، وهانتينغتون في **صدام الحضارات**. واستفاد كاتبو المقالات من آراء روجيه غارودي في **حوار الحضارات**، وإدوارد سعيد في **الاستشراق والثقافة الإمبرياليّة**. كما تمت الاستفادةُ، جزئيّاً لا بل شكليّاً، من مقولات ميشال فوكو، وآرنولد توينبي، وأندريه ميكال، ومونتغومري واط، وبرنارد لويس، وألبرت حوراني، ومكسيم رودنسون، وسمير أمين وغيرهم. فالهمّ الإيديولوجيّ حاضرٌ بكثافة، ولم يَغِبْ لحظةً واحدةً عن كامل صفحات الملف. ووُجِّهتْ أصابعُ الاتهام بشكلٍ دائمٍ لإبراز العلاقة الصراعيّة بين الحضارات، وتحديداً بين العرب أو المسلمين والغرب لدحض مقولات فوكوياما وهانتينغتون. كما أنّ المرجعيّة التاريخيّة البحتة لبعض دراسات الملفّ أضعفته إلى حدٍّ بعيدٍ، لأنّها دراسات استشراقيّة لا تقدِّم جديداً في حوار/صراع الحضارات.

بعض الملاحظات الختاميّة

يشير معدُّ الملفّ في مقدِّمته إلى الحقل الزمنيّ لمقولة حوار/صراع الحضارات على الشكل التالي: «لقد انطلقتْ من هذه المنطقة قبل مائة عام من ميلاد السيد المسيح مقولةٌ لفيلسوف عاش بين طبريا وصور واليونان: 'إنّنا نعيش في بلد واحد هو العالم'. ويبدو حوارُ الحضارات جزءاً من تلك المقولة الاستشراقيّة المديدة، التي لا نغفل، وسط تعقيدات عالمنا واستقطاباته الجديدة واختلال توازناته التقليديّة، أنّها مقولةٌ تدفعنا إلى العمل كي تتحقَّق عالميّة العالم بالفعل لا بالاسم؛ في إطارٍ حضاريّ ـ ثقافيّ يقوم على التنوع والتعدُّد والاختلاف والتواصل، خارج عمليّات النبذ والنفي والإقصاء والتهميش. فهل تودِّع البشريّةُ عصر 'الإبادة الثقافيّة'؟». لكنّ العبارة العاديّة، «إنّنا نعيش في بلد واحد هو العالم»، لفيلسوفٍ لم يفصح الباحثُ عن اسمه، لا تحتمل كلّ هذه التداعيات الفلسفيّة التي تمتدّ لأكثر من الفيْ عام. ومن الصعب الجزمُ بأنّ هناك صلةً رحميّةً بين تلك العبارة ومقولات «نهاية التاريخ» و«صراع الحضارات» و«عصر العولمة» بسبب تباين الظروف الموضوعيّة لنشأةِ كلٍّ منها، وتطورها، والأهدافِ المتوخاة منها. وليس من شكّ في أنّ غالبيّة المفكِّرين العرب، بدءاً من عصر النهضة ووصولاً إلى عصر العولمة، هم على إيمان تامّ بأنّ للأفكار أو المقولات النظريّة عالَمَها الخاصّ بها، وليست قابلةً للتمدُّد أو الانتشار والتأثير عبر كلّ الأمكنة والأزمنة. ولسنا بحاجة إلى التذكير بضرورة ربط المقولات النظريّة بالقوى البشريّة والظروف الموضوعيّة التي ساهمتْ في ولادتها ونشرها. وعلى جانب آخر، فإنّ ضبابيّة العنوان «حوار/صراع

الحضارات» المتفلّتِ من قيود المكان والزمان سَمَحَ بتوليد مقولات من النوع ذاته، ومنها: «الشراكة المعرفيّة بين الشرق والغرب»، و«نقد المدنيّات الحديثة»، و«صور التعارف المتخيّلة بين العرب والغرب» وغيرها. وكان من الأجدى تحديدُ حقلٍ معرفيٍّ وزمانيٍّ واحد لمعالجة هذا الموضوع الذي تكاثرتْ حوله الملفّاتُ الضخمةُ دون إضافاتٍ علميّةٍ متميّزةٍ في معظم الأحيان. ودليلنا على ذلك أنّ العناوين الفرعيّة المدْرجة في جميع مقالات الملف تجد شبهاً حرفياً لها في ملفات ودراسات أخرى، منها: «زيف سؤال حوار/صراع الحضارات»، «الصورة المتخيّلة بين أوروبا والعرب»، «الصورة التخيُّليّة لأوروبا المسيحيّة عن الإسلام»، «في مناخ الحروب الصليبيّة»، «دور الاستشراق في تأجيج الصراع الحضاريّ»، «نقد المركزيّة الأوروبيّة»، «عبقريّة الحضارة الغربيّة بين الأسطورة والحقيقة»، «الاعتراف بالتعدُّديّة الثقافيّة»، «حوار الحضارات كبديل للحروب الحضاريّة أو صراع الحضارات»، «بين التسامح والعدالة الإنسانيّة أو الكونيّة»، «أخلاقيّات عالميّة جديدة»، «ما بعد الحداثة وحوار الحضارات»، وغيرها.

خلاصة القول إنّ ملف الآداب شكّلَ مادةً ثقافيّةً جديرةً بالدراسة والنقد بهدف تطوير المقولات الواردة فيها والارتقاء بالفكر العربيّ إلى مرحلةٍ جديدةٍ من المواجهة مع مقولات العولمة والتحدّي الحضاريّ لبناء نهضة عربيّة جديدة طال انتظارُها. وليس بعيداً منه الكتاب السنويّ الخامس الذي نشره تجمُّعُ الباحثات اللبنانيّات في نهاية عام ١٩٩٩ تحت عنوان: **الغرب في المجتمعات العربيّة: تمثُّلات وتفاعلات**، وفيه دراساتٌ مهمّةٌ ووجهاتُ نظرٍ جديرةٌ بالتأمُّل، بالإضافة إلى كتابات وسير ذاتيّة حول الصدمة التي أحدثها احتكاكُ المثقّف العربيّ بالغرب. وقد أفردنا دراسةً خاصّةً للمقارنة بين ملفَّي الآداب والكتاب المذكور في النظر إلى موضوع واحد هو الحوار/الصراع بين العرب والغرب. ويبدو أنّ وجهات نظر المثقفين العرب متباعدةٌ جدّاً في كثير من جوانب الحوار/الصراع. وبالتالي، لا بدّ من فتح حوارٍ نقديٍّ وبنّاء بين المثقفين العرب أنفسهم لتقريب وجهات النظر فيما بينهم، والمساهمةِ في إخراج هذا الموضوع الشائك والمعقّد من دائرة التبسيط والمقولات الإيديولوجيّة الجاهزة إلى دائرة الفكر النقديّ المعمّق، وتشجيع الأبحاث الميدانيّة والموثّقة في النظر إلى الغرب على حقيقته لا من خلال المخيال العربيّ المتوارَثِ جيلاً بعد جيل. فالغرب متعدّدٌ لا واحد أو موحّد في النظر إلى العرب. كما أنّ العرب ليسوا موحّدين في نظرتهم إلى الغرب، ولم يرسموا استراتيجيّة الحدّ الأدنى للحوار البنّاء معه من موقع الندّيّة لا من موقع القبول أو الرفض. يضاف إلى ذلك أنّ صورة الغرب الاستعماريّ التي تولّدتْ في المخيال العربيّ في القرنيْن التاسع عشر والعشرين لا يمكن أن تطبّق بكثيرٍ من الاستسهال على مختلف الحقب التاريخيّة تسهيلاً لإطلاق تعميماتٍ تلغي العلم التاريخيَّ وسط ضجيجٍ خادعٍ من الإيديولوجيا المأزومة.

ونشير أخيراً إلى أنّ العولمة ليست شراً مطلقاً يجب تفاديه بأيّ ثمن، أو التذكيرُ الدائمُ بسلبيّاته التي لا حصر لها، لأنّ العزلة عنها غيرُ ممكنةٍ، كما أنّ عدم التفاعل معها يقود إلى نتائج مدمِّرة على الحاضر والتراث معاً. فالعولمة سيرورة تاريخيّة تتلاقى فيها جميعُ الشعوب والثقافات والحضارات من مواقع الفعل أو ردّ الفعل، لكنّ التفاعل معها أمرٌ حيويٌّ ومحسومٌ لبناء مرحلةٍ أرقى في التاريخ الكونيّ. فجميع شعوب الأرض، ومنهم العرب، مدعوُّون إلى المشاركة في بناء هذا التاريخ. ولن يكون بمقدورها دخولُ العولمة من موقع الندّيّة والمساواة والمساهمة في بناء نظامٍ عالميٍّ جديد ما لم تطوِّر ذواتها نحو الأفضل في مختلف المجالات السيّاسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والإداريّة والتربويّة وغيرها. ففي حين تَحْمل بعضُ الشعوب على أكتافها أوزارَ تاريخٍ طويلٍ من التخلُّف، والسيطرة الاستعماريّة، والاضطهاد، وانعدامِ الحريّات الأساسيّة، وتبديدِ الموارد الطبيعيّة، وانتشارِ الفقرَ والمرض والأميّة على نطاق واسع، تدخل شعوبٌ أخرى عصرَ العولمة بكثيرٍ من الغنى الماديّ، والتقدُّم العلميّ والتقنيّ، والتماسكِ الداخليّ على قاعدة مكتسبات وطنيّة وقوميّة منجزة، مع احترام الحريّات الأساسيّة للإنسان فيها حتى يمارس كلٌّ أشكال الإبداع الفرديّ والفعل الثقافيّ ومزوّداً بأحدث أشكال التكنولوجيا العصريّة والإعلام المتطوّر. ومن نافل القول إنّ مقولة «حوار/صراع الحضارات» أو «تفاعل الثقافات» ليست معزولةً عن قوى الحوار أو الصراع في المجتمعات الراهنة. وبالتالي، فإنّ نقل هذا الحوار/الصراع إلى دائرة الصراع اللفظيّ والخطب الحماسيّة، وضخّ مقولات إيديولوجيّة خادعة، أو متشائمة أو متفائلة، لا يمكن أن يساهما في بناء حوارٍ حقيقيٍّ يقوم على الندّيّة، مادام يُهمل نقدَ الواقع الموضوعيّ لموقع كلٍّ من الأطراف المتحاورة أو المتصارعة ودوره. وليس العرب الآن في موقع الندّيّة مع القوى الفاعلة في عصر العولمة، لأنّهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة العمل الجماعيّ للدفاع عن الذات القوميّة العربيّة المهدّدة بمزيد من التفسُّخ والانحلال. ولعلّ أفضل خدمةٍ يقدّمها المثقفون العرب لبني قومهم أن يتم توظيفُ الثقافة النقديّة، لا السجال الإيديولوجيّ السهل، في مشروعٍ نهضويٍّ عربيٍّ جديد يَسْمح للعرب بدخول عصر العولمة كقوّة بشريّة واقتصاديّة ومالية وعسكريّة ذاتِ تماسكٍ داخليّ على أسسٍ وحدويّة وقوميّة صلبة.

متى يخرج المثقفون العرب من دائرة السجال الايديولوجيّ في تكرار نقدهم لفوكوياما وهنتنغتون؟

وعندما يمتلك العربُ القدرةَ والرغبةَ في تحرير إرادة الإنسان العربيّ على كامل أراضيه وموارده وثرواته الطبيعيّة، يصبح لديهم حضورٌ فاعل في مجالهم الحيويّ مع حق السيادة عليه، ويتمتعون بالاستقلال الماليّ وبحريّة اتخاذ القرار المستقل على غرار القوى الكبرى في النظام العالميّ الجديد. آنئذ ترتدي الدراساتُ العربيّة حول مقولة «حوار/صراع الحضارات» بُعداً آخر يتقلّص فيه الهمُّ الإيديولوجيُّ لصالح أبحاث علميّة معمّقة في مجال دراسات الحضارات المقارنة.

لقد آن الأوان لإخراج مقولة «الحوار/الصراع بين الحضارات» من دائرة الهموم الاستشراقية ذاتِ المنحى الأيديولوجيّ المملّ إلى دائرة «التحدّي والاستجابة» التي أطلقها المؤرخ البريطانيّ المشهور أرنولد توينبي. فالحضارات القادرة على التحدّي والاستجابة لا خوف عليها لأنّها حظيتْ باحترام الشعوب الأخرى قبل أن تحظى باحترام شعوبها، وقد أسهمتْ في صياغة الحضارة الكونيّة والتاريخ العالميّ منذ بدايات تشكّلُه. أما الحضارة الكونيّة المعاصرة فتصاغ كل يوم بعيونِ المستقبل وأدواته، لا بأسلحة الماضي ومقولاته التراثيّة.

فلماذا أُفردتْ ملفاتٌ عربيّة بكاملها عن «الحوار/الصراع بين الحضارات» دون ذكرٍ لمقولة توينبي العلميّة إلا في هوامش ثانويّة للغاية؟ ومتى يَخْرجُ المثقفون العرب في أبحاثهم النظريّة في هذا المجال من دائرة سجالٍ إيديولوجيٍّ بات عديمَ الفائدة في تكرار نقدهم لمقولات فوكوياما وهانتينغتون، إلى دائرة البحث النظريّ المعمّق حول أهميّة مقولة «التحدّي والاستجابة» التي لا تزال أكثرَ حضوراً وفاعليةً من كل الضجيج الايديولوجيّ الذي سيطر على الساحة الثقافيّة العربيّة طوال العقد المنصرم؟

ختاماً، لقد قرأتُ بعناية بالغة كلَّ مقالات ملف الآداب الأخير، فاستفدتُ منها في مجالات كثيرة. وما نقدي لهذا الملف سوى اجتهادٍ شخصيٍّ لا يعطي صاحبَه القدرةَ على دحض مقولات نظريّة متميّزة وردتْ فيه أو التقليلَ من أهميّتها. حسبي أنّني اجتهدتُ في قراءة ملفَّيْن، ولم أكتفِ بملفٍ واحد، وهما من أفضل ما أصدره المثقفون العرب في هذا الموضوع. ولستُ ممن يدّعون امتلاكَ قراءةٍ جديدة لمقولة «حوار/صراع الثقافات أو الحضارات» لأنّ ذلك يحتاج إلى جهدٍ جماعيٍّ من الباحثين العرب. لكنّني سعيتُ جاهداً إلى تثقيفٍ ذاتي أولاً عبر تمثُّلٍ نقديٍّ لمقولات باحثين أُجلُّهم وأحترمهم، بعد أن أتيحت لي فرصةُ الحوار المباشر مع نصوصهم. فكانت قراءتي النقديّة لملفّ الآداب، ومن خلاله لكتاب **الغرب في المجتمعات العربيّة** تهدف، بالدرجة الأولى، إلى تجاوُزِ ما أتفقُ فيه مع كاتبي المقالات المنشورة، وهو كثير، إلى مناقشة مقولاتٍ خلافيةٍ معهم. وكانت الغاية من ذلك استثارة المزيدِ من النقد، والمزيدِ من التثقيف الذاتيّ، بالإضافة إلى نشر حوارٍ مفتوح، على أمل توليد ثقافةٍ نقديّةٍ عربيّةٍ أكثرَ عمقاً وشموليةً حول هذا الموضوع المهمّ والبالغ التعقيد في آن واحد. لقد استفدتُ كثيراً من مناقشة المقولات النظريّة الواردة في هذا الملف، وأملي كبير في أن تقدّم قراءاتي النقديّة هذه إفادةً تُذْكر لأصحابها.

بيروت

٢ ـ ملفّ الآداب بين الكشف والإغفال

غريغوار مرشو

أصبحتْ إشكالية الحوار والصراع ما بين الحضارات مثار جدلٍ فكريّ عالميٍّ للاعتبارات التالية:

١ ـ إذا كانت الأطماعُ التوسُّعيّة والهيمنةُ على الكون، في الماضي، مجردَ حلم أو طموحٍ محدودِ الامتداد وغيرِ منظَّم يراود الفاتحين في الإمبراطوريات أو الحضارات القديمة ـ المكوّنةِ أساساً من أقوام متعدّدةِ الجنسيّات والأديان والثقافات، في إطارٍ سياسيٍّ عسكريٍّ يحافظ على استقلاليّة ثقافاتها وإدارةِ شؤونها الذاتيّة ـ فقد صارت اليوم، وللمرة الأولى في تاريخ البشريّة، وبتأسيس المركزيّة الغربيّة، أكثرَ تنظيماً وحقيقةً واقعيّةً في تهميش هذه الثقافات وتدمير أسسها الاقتصاديّة على الصعيد العالميّ.

ولكي يستقيم للمركزيّة الغربيّة ذلك، فقد سبقتْها استعداداتٌ جيوسياسيّة واقتصاديّة وثقافيّة عامّة، مكّنتْها من بلورةِ صورةٍ عن ذاتها، ومكّنتْها ـ بشكلٍ موازٍ ـ من خلق صورةٍ ممسوخةٍ عن الآخر، تؤكّد ذاتيّتها. ثم رسمتْ مصيراً ميتافيزيقياً «متعالياً» لها، لتجعل من نفسها محوراً، بل مرجعاً تاريخيّاً عالميّاً أحاديّاً في معالجة مجتمعات ما وراء ضفافها، وذلك عبر إنشاء منظوماتٍ فكريّةٍ ترمي هذه المركزيّةُ من ورائها إلى إجماع مواطني مجتمعاتها على رسالتها التبشيريّة التحضيريّة، كي يتسنّى لها تصديرُها من خلال إغواءِ وتنشئةِ نخبٍ في المجتمعات المفتوحة تصبح معابرَ لبسط سيطرتها وترسيخها في جسم تلك المجتمعات.